مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-046
المجلد5 ، العدد11، (سبتمبر 2017) EISSN : 2600-6421

معجم صنع الله إبراهيم الروائي
بين السياسة والتاريخ

الأستاذة: هدى ملاحي
جامعة البليدة 2

ملخص البحث

يشكل صنع الله إبراهيم صوتا روائيا متميزا واصيلا، طبع كتاباته الأدبية بطابع التمرد في الحياة بنوع من الجرأة والتحرر في كل رواياته فتمرد في أسلوبه وأفكاره و ألفاظه و ابطال اعماله الروائية و الأمكنة التي استعمها و الأزمنة و كذلك. في صنع الحدث وتركيب القصة فتميزت اعماله كلها بصلتها الوثيقة بالتشابك مع سيرته من جهة و مع تاريخ مصر من جهة أخرى، فاخترق عوالم السياسة في الأفكار كما في الالفاظ "بجهاز أيديولوجي مركب و حس فني رفيع،

Résumé de la recherche

sonallah Ibrahim est une voix littéraire distinguée et originale. Ses écrits littéraires sont caractérisés par la nature de la rébellion dans la vie avec une sorte de hardiesse et d'émancipation dans tous ses romans. Il s'est rebellé dans son style, ses idées, ses paroles, ses héros, ses œuvres littéraires, les lieux qu'il a utilisés et les temps. La composition de l'histoire a été caractérisée par sa relation étroite avec son histoire et l'histoire de l'Egypte. La création de Dieu Ibrahim est une voix littéraire , ses œuvres littéraires

الباحث في أعمال صنع الله إبراهيم يلاحظ منذ القراءة الاولى ذلك الهوس الكبير في امتزاج الحس الادبي لديه بالحس السياسي المتشابك مع التاريخ وما فيه من ملابسات وملاسنات وأخذ ورد في المواقف والافعال والسلوكيات الثقافية والايديولوجية المرتبطة أحيانا بالثقافة الأنثروبولوجية والنزعات الصوفية التي تجعل من كاريزما صنع الله ابراهيم شخصية مستفزة مناورة ، نصدقها في شيء ونذير لها ظهرنا أحيانا كثيرة ، لأنها تحمل بصمات اسلوبية مثيرة للعقل قبل المشاعر ..وتكشف بشكل او بآخر احساس صنع الله ابراهيم بويلات الحياة التي عاشها

بفعل نزعته المتمردة الرافضة لكل أساليب الهيمنة على الرأي ، وقد كانت المراحل التاريخية المتعاقبة السياسية التي شهدها أرشيفه الذي حفر ت فيه نصوصه الروائية بأسلوب دراماتيكي ثقافي تاريخي توثيقي تارة ، وبأسلوب ساخر تهكمي تارة ، وبأسلوب تقريري مكشوف عار متعمد تارة أخرى .

ها هو يقدم لنا في روايته الشاهدة : وردة (1) هذا المشهد الروائي الموغل في السياسة الى حد التقرير او التسجيل اليومي الوثائقي ، الذي يسوقه لنا في شكل يوميات سيرذاتية ، لكنها يوميات تتجرد كليا من الوجدان الجمالي بهذا الشكل المتمرد عن تقنيات الكتابة الروائية السردية المألوفة حتى عند الروائيين القريبين منه فكريا مثل الروائي علاء الأسواني الذي اتهم بالإلحاد بسبب تحامله على الوهابية (2) :

"أول يوليو :

الكويت تستنجد ببريطانيا ضد التهديد العراقي .

...دورة في صوفر بالجبل . رشحوني لعضوية لجنة الفكر .تم تنزيل يعرب الى عضو حلقة بسبب ما بدا عليه من حب للظهور .

° يوليو :

عبدالناصر يطالب بجلاء القوات البريطانية عن الكويت .

18 يوليو :

امتنعت رائدة عن لقاء يعرب .

20 يوليو :

تأميمات ناصر تثير الحيرة والتساؤلات ، شهاب يقول انها نتيجة منطقية لرغبة ناصر في توظيف الممتلكات الاجنبية في خطة تنمية شاملة للبلاد ....." (3)

على هذا النحو من التشكيل السياسي ، تتوتر أفكار الشخوص الروائية التي يحركها الروائي بمنطق يتمادى فيه اثارة المواقف السياسية والنعرات القبلية داخل المجتمع العربي عموما والمجتمع المصري على وجه الخصوص .وهو غالبا ما يتعمد اثارة القلائل ضد المجتمع كرد فعل منه على منطق السلطة التي لا تعجبه اطلاقا لأنه يؤمن بثقافة خاصة اجتماعية ، او بالأحرى ثقافة اشتراكية لها منطقها الخاص مبني في ضميره الواعي ، خاصة انه كان على صلة وثيقة بتيار (شيوعي) انتمى اليه وهو في ريعان العمر حين كان طالبا في الحقوق حسب دارسيه الذين أطلقوا عليه

اسم الرجل الذي صار أديبا في السجن ، مع أنه لم يكن أثناء دراسته ملازما للأدب الذي كان بالنسبة له مجرد مضيعة للوقت بتعبيره (4) ثم تغير رأيه كليا عندما زجت به أفكاره السجن بتهمة المشاركة في محاولة انقلاب على الحكم ، و ها هو يرسم لنا استلهامه للفكر الاشتراكي – والمفروض انه حر في ذلك - يقول :

" ....قرأت ملخصا لكتاب رأس المال لكارل ماركس . انه يؤكد حتمية القضاء على نظام الرأسمالية وحتمية الانتقال الى الاشتراكية بوصفها وريثة الرأسمالية : النظام الرأسمالي ليس سوى نظام استغلال طبقي تمارسه طبقة البرجوازية...."(5)

ان مبررات صنع الله في لجوئه الى هذا النمط من السياقات السياسية التاريخية الكثيفة التي يتكئ عليها تقنيا مردها لديه غاية كبرى هي التوثيق لتاريخ مصر , وهي حقيقة متجذرة لديه في كل رواياته ، بما في ذلك روايته الاولى : **"تللك الرائحة"** التي كتبها بعد الإفراج عنه من السجن سنة 1964 ، اين قضى فترة 5 سنوات خلف القضبان ، وكان ذلك بسبب مواقفه السياسية وتمرده على قوانين الدولة (6).

ينقل الينا صنع الله ابراهيم في مقدمته للطبعة الثالثة لروايته الاولى (تلك الرائحة) في طبعتها الرابعة معاناته مع المصادرة التي لحقته بعد خروجه من السجن ودخوله عالم الكتابة : " ...كانت طبعتها الاولى قد صدرت - وصودرت –في القاهرة منذ سبع وثلاثين سنة - سنة 1966 ..." (7) ولا يتردد ان يبرز لنا مخاض الكتابة لديه وكيف تشكل لديه هذا الهاجس ... يقول صنع الله إبراهيم " 1964 حدث الإفراج العام و خرجنا و كتبت أول رواية (تللك الرائحة) و صدّرتها بمقتطف لجيمس جويس : ("أنا نتاج هذا الجنس ، وهذه الحياة ، و لسوف أعبّر عن نفسي كما أنا "، و كان هذا شعاري : أنْ أعبّر عن حياتي، و كنت حينها ملاحقا بالرقابة القضائية ، و هناك أحلام بها و إشارة للتعذيب، فكان هذا واقعيا .") (8)

رواية تلك الرائحة التي يزكيها الروائي يوسف ادريس في طبعتها الاولى بإجلال قائلا عنها في مقدمته لها ، انها : " ليست مجرد قصة مجرد قصة ، و لكنها ثورة فنان على نفسه ، وهي ليست نهاية ، ولكنها بداية أصيلة لموهبة أصيلة، بداية فيها كل ميزات البداية ، ولكنها تكاد تخلو من عيوب البدايات لأنها ايضا موهبة ناضجة ."ويقول قبل ذلك :" انها صفعة أو صرخة أو آهة منبِّهة قوية تكاد تثير الهلع ....(9)

ولا يتردد الدارسون في القول عن هذه الرواية ذات النفس الجمالي المتمرد ، انها جديدة بشكل واضح ، وسوف توصف لاحقا بأنها رواية الحداثة الاولى في مصر،

لاحبكة ولا تسلسل زمني ، بطل لا اسم له ، كافكاوي السمت ، يدور في الشوارع بلا هدف او يتمدد على سريره يدخن ، لاشيء ذا بال يحدث في الرواية اللهم الزيارة اليومية المنتظمة لرجل الامن ليتأكد من تواجد هذا الشخص في منزله ليلا ، وعدة فلاش باكات وبعض الصور الموحية ، واسلوب في السرد محكم ومقتصد ، وجمل تلغرافية على طريقة هيمنجواي وتجربة اغتراب تحيلنا الى غريب كامي ..." (10)

هذا النص النقدي التوثيقي يشير الى طابع التمرد الكامن في شخصية صنع الله ابراهيم ، منذ انتمائه الى حقل الابداع الروائي ، وهو تمرد يحمل ارهاصات مبدع جريء مفارق للعادة ، والدليل على ذلك انه أنشأ رواية سماها (67)..بعد رواية تلك الرائحة في سنة 1968 وكانت بمثابة جزء ثان لروايته الاولى ، ولم يحالفه الحظ ان ينشرها لما اتصفت به من جرأة زائدة في تعرية الواقع الاجتماعي السياسي الناصري الذي كان هو نفسه جزءا منه.. وظلت الرواية طي النسيان الى ان نشرتها مجلة عالم الكتاب في عددها المشار اليه سابقا سنة 2015 (11)..ونحن هنا نهيب نقديا بالإعلامي والشاعر محمد شعير ومجهوده الكبير في نفض الغبار عن هذه الرواية ..التي تمثل سجلا ابداعيا رهيبا يشير بالأصبع الى روائي رفيع المستوى مذهل الموهبة ..ونحن ننطلق من هذه المسلّمة التي نقر فيها بجدارة صنع الله ابراهيم ككاتب مصري فريد من نوعه ، ونختلف معه اختلافا ثقافيا ونقديا ، ولا نريد ممارسة الوصاية عليه ، لأنه عارف بخبايا الابداع ويؤمن بأفكاره .

في عام 1968 كتب صنع الله إبراهيم روايته الثانية "67" التي يمكن اعتبارها نقديا جزءا ثانيا لرواية " تلك الرائحة " لأنها تحمل السمات الأسلوبية و الجمالية نفسها ، و إن كانت أكثر جرأة .(12) ثم أتبعها برواية "**ذات**" ثم رواية "**شرف** "اللتان تناولتا واقع الأسرة المصرية بعد الانفتاح الذي شهدته مصر بدءا بالمرحلة الساداتية التي خاض فيها صنع الله ابراهيم بطرق شتى ، ينقل الينا في روايته (ذات) أنموذجا من وجدانه السياسي مضفيا على اسم (ذات) معنى الجوهر) الذي يعبر من خلاله عن امرأة مصرية من الطبقة المتوسطة بشكل يجعلها تختزل الهوية الهوية او الذات .. " ويهدف الى الجوهر الروحي للبطلة وهويات البلد التي تكافح من اجل البقاء على قيد الحياة حيث تحكي الرواية عن حياة ذات من منظور بعيد تهكمي " (13) ، وببساطة نجده يستعرض الذات السياسية المصرية في كف السياسيين الذين يراهم مجرد دمى قابلة للمزايدة .. يقول في هذا الشأن :

"عندما مات جمال عبدالناصر وأصبح السادات رئيسا للجمهورية ، أراد البيروقراطيون أن يضعوا صورة الأخير مكان صورة سلفه على جدران المكاتب الحكومية والمؤسسات المختلفة ، لكن السادات رفض ذلك الاجراء ، مقدما لمواطنيه درسا قيما في الوفاء ، فقد روي عنه قوله : ان الافضل من رفع صورة عبدالناصر تركها حتى تقع من تلقاء نفسها ....." (14)

صنع الله ابراهيم لاشك انه يشير الى الدهاء السياسي الذي تميزت به شخصية السادات ..انه يريد القول ان التمثال المقدس لابد ان تختل قدسيته بفعل متغيرات الزمن ..

ومع انه من حق الرئيس ان يقول ما يريد قوله ، ويفرض ارادته وسلطته وقراراته، الا ان صنع الله يصنع من الموقف قضية رومانسية انفعالية او (فزورة) درامية فيها دعابة ساخرة . ولم يكن ميله البالغ الى ارساء هذا التوثيق الدعائي اليومياتي لخطب الرئيس وسرد شؤون الوطن والوطن العربي و الكيان العربي المُبرح في تخاذله وفقره الفكري والانساني وانكساره السياسي في رواية "**وردة**" ، خاصة خوضه في تجربة جبهة ظفار عمان ، ثم تناوله الساخر لدائرة الحرب الأهلية اللبنانية التي حللها بطريقة مشاكسة في روايته (بيروت بيروت). و لم يتردد ان يمارس جرأته الثقافية السياسية ليذهب بعيدا عن الواقع العربي ليكشف طلاسم العالم الغربي السياسية والاجتماعية والتاريخية والانسانية في روايته "**أمريكانلي**" التي سخّر لنا لقراءتها "مفتاحا مرفقا مع العنوان الاساسي :" أمري كان لي "وهو تصرف دلالي اضفاه الكاتب على العتبة النصية في محاولة منه لتبرير الخطاب الروائي في سياقه وفي مفرداته الدالة ، وفي زاوية نظره .بصورة تغلب فيه المفارقة الدلالية على تمثّلات المعنى السردي الذي يبنيه في رواية امريكانلي على المراوغة الدلالية ، وهو ما نلمسه في روايتيه : اللجنة وشرف ، وهو ايحاء ينتج عن تعدد الوظائف السردية وتباين المستويات بتعدد الشخصيات وتنوع نماذجها .. ..(15)

عبّر صنع الله ابراهيم في رواية امريكانلي عن تجربة أستاذ تاريخ مصري ، وكشف طبيعة معاناته داخل هذا المجتمع المتفتّح الى أبعد حد داخل جامعة أمريكية بالذات ، وهو ما دعاه ليتعرض لتاريخ البلدين ، مصر ، وأمريكا ، ولم يتردد في ذلك ان يقدم الوجه الآخر لأمريكا بكثير من المصداقية والعفوية والحدة والذكاء والمعاناة البالغة الوجدان ...

صنع الله ابراهيم بهذا الشكل اسم له وزنه الفني الى جانب وزنه الثقافي والفكري والسياسي لأنه يحمل في ذاته الثورة على الراهن وعلى التاريخ في الآن نفسه ، ولا يتمادى في السقوط بل يرفضه مطلقا ، ويرفض الانتماء الى أي جهة مهما كان انتماؤها او طاقتها او ارادتها ، ويرى ان الثورة على كل شيء هي الأنسب، الثورة في القلم، في الفكر والتناول. وهو ما جسّده في كل أعماله الإبداعية كما يتجلى من خلال التتبّع لمعجمه السياسي والتاريخي والانثروبولوجي والثقافي ...بشهادة دارسي أعماله

يشكل صنع الله إبراهيم صوتا روائيا متميزا ،طبع كتاباته الأدبية بطابع التمرد في الحياة بنوع من الجرأة و التحرر في كل رواياته ، فتمرد في أسلوبه و أفكاره و ألفاظه وأبطال أعماله الروائية و الأمكنة و الأزمنة التي اعتمدها ، و كذلك .في صنع الحدث و تركيب القصة فتميزت أعماله كلها بصلتها الوثيقة بالتشابك مع سيرته من جهة ، و مع تاريخ مصر من جهة أخرى ، فأبدع في السرد و الحكي بشكل جيد. وفي هذا المعنى يضعنا أستاذنا الكبير الناقد صلاح فضل حين ينتهي الى فكرة ان صنع الله ابراهيم يتميز " بأسلوبه التوثيقي الصارم الذي ينحت نموذجا تقنيا ولغويا متفردا يجعلك تتعرف على كتابته منذ السطور الاولى ، فيقوم بدور المصور المحترف عندما يتحول القلم في يده الى كاميرا صغيرة تبرع في انتاج لقطات مركزة مركبة ، على مسافات متساوية ، يندر ان تهتز او تغيم او تخرج عن نمطها الذي يخرج شريطا متعاقبا شديد الدقة في ترتيب التفاصيل وتلوين الاحاديث وضبط الاشارات الايديولوجية والحيوية والمتكررة بايقاع موزون .....(16)

استعمل صنع الله إبراهيم عددا من الالفاظ السياسية والتاريخية ...التي صنعت له قاموسه اللغوي الخاص به ، ميّزه عن باقي أبناء جيله...كيف لا وهو روائيُ أدب السجون بامتياز بشهادة صاحبة كتاب أدب السجون المشار اليه سابقا . وحتى أوضح ذلك ، أحاول أن أرصد الطبيعة المعجمية التي تميز خطاب صنع الله ابراهيم الروائي ، وأقف عند بعضها على هذا النحو :

1 المعجم السياسي: تميز صنع الله إبراهيم بالقدرة على اختراق عوالم السياسة في الأفكار كما في الالفاظ "بجهاز أيديولوجي مركب وحس فني رفيع، يمكن ان نبوبه في النقاط التالية :

- يؤكد الدكتور صلاح فضل ان صنع الله ابراهيم أسس أسلوبا توثيقيا منذ عقود بلغة متمردة. **لها خصوصاياتها وطريقة تدفقها كما هو الشأن في رو ايته (القانون**

الفرنسي) من خلال قدرته على تحويل المادة الفكرية والوثائق التاريخية الى تيار رو ائي دافق عامر بالحياة والفن ....(17)

- برع صنع الله إبراهيم بأسلوب متمرد في تشخيص الواقع السياسي المعاصر، وتصوير أمراض السلطة والحكم البراغماتي والانتهازية الوصولية وانتهاك حقوق الإنسان والزج به داخل السجون والمعتقلات السياسية. و سخريته من أنظمة الحكم العربية القائمة على الحكم الفردي والتسلط والاستبداد، من أبرز أساليبه التي يلعب بها في خطابه الى درجة الصراخ المباشر ، وهو الذي عاصر ثلاثة من الحكام عن قرب ودخل معهم في مناوشات نصية دون هوادة بدءا بالناصرية التي دخل معها في صراع منذ سن العشرين بسبب قضائها على المعارضة بشكل كامل ، وقد تميزت ثورته بشكل عام بالفضاضة والقسوة المبرحة (..18)

ان شخصية صنع الله بهذه الروح شخصية مستفزة متمردة ، وليست بالضرورة على حق ، لان من العدالة ان نقر ان جمال عبد الناصر رغم كل ما يقال عنه يبقى محبوب الجماهير العربية كلها الى هذه اللحظة .وأعداؤه الطبيعيون معروفون

- انتقد الذات بوقاحة وجرأة ، وتمادى في جلد نفسه وجلد مجتمعه المصري بألم صامت ، و هذا ما نلمسه في رواياته المختلفة مثل ما جاء به في رواية تلك الرائحة ، و نجمة أغسطس ، و اللجن ، وبيروت بيروت ، ووردة ، وذات ، والجليد وامريكانلي ، وحتى رواية شرف ، ولم يكن انتقاده للذات بديهة فقط ، بل كان نقمة على الكل بما في ذلك نفسه وعائلته ، والا كيف يمكن ان يرفض سنة 2003 جائزة الدولة للأدب بقيمة مائة ألف جنيه مصري لتسحب منه في اكتوبر ..2003. (19) واعتقد ان هذا الفعل الذي تبناه احتجاجا على التهديدات الاسرائيلية والاملاءات الامريكية ، لم يقدم له ككاتب شيئا ذا بال اللهم الا بعض الاطراءات الكاذبة من هنا وهناك لسبب بسيط ان الاموال هي أموال مصر وليس اسرائيل او امريكا ..ونحن لا نلومه لان جنون الابداع يعني الكثير ، ولعل عبقريته الفذة هي التي غذت فيه هذه الروح المتمردة بشكل لافت ..تلقفه الاعلام ..خاصة اعلام المعارضة ..لا غير ،

- استطاع صنع الله إبراهيم ان يصنع معجما خاصا به باستعماله ألفاظا سياسية بإيقاعات خاصة ، و قد ساعده في ذلك انه واحد من رواد كتاب نص السجن ، الذي سجل فيه كل ما يريد من عواطف غاضبة وشجون صاخبة . و قد شمل هذا النص - فضلا عن اليوميات و السير الذاتية و الروايات - شهادات لا حصر لها و مقابلات عديدة

تؤرخ وجدانيا لأحداث ووقائع مثيرة للجدل ، وكان لها أثرها الواضح في أسلوبية الخطاب الروائي عند صنع الله ابراهيم ،تجربة وأداء وصياغة .

- أعطانا صنع الله ابراهيم في روايته ذات – على سبيل الاشارة- معجما سياسيا أخذه حسب ما قال من الواقع و السياسة بجعله السيدة المصرية بطلة من ابطال الرواية : " و شعرت أنه من الممكن عمل خريطة فنية من موضوعا ت الجرائد بحيث تعبر عن الواقع الموجود .. جاء هذا في رواية ذات و كانت فكرتها في البداية أننا ليس لدينا بطلات في الأدب ." (20).

و يواصل الحديث - كما يؤكد ذلك في شهادته – عن سبب كتابته للرواية بقوله :" جاء هذا في رواية ذات و كانت فكرتها في البداية أننا ليس لدينا بطلات في الأدب و فكرت أنه ممكن تكون امرأة تقود منظمة و تعمل مداخلة في التلفزيون بحيث يمكن للرئيس أن يتحدث فنقول أنت كاذب مثلا .لكنني لم أستطع أن أعمل هذا ، و خرج العمل بنوع آخر للسيدة المصرية المستضعفة التي ينتهي بها الأمر أن تتحجب و تعتزل المجتمع ".(21)

بهذا النوع من التمرد في نسج و خلق الموضوع قدم صنع الله إبراهيم للقارئ معجما سياسيا متمردا من خلال ذكره لألفاظ سياسية و حتى شخصيات سياسية حقيقية (سياسة الدولة المتحيزة ،القطاع العام،-رئيس الجمهورية. الحلم الرأسمالي. ظل ، اشتراكية. البيروقراطيين. المكاتب الحكومية.، الرئاسة ...وغيرها من الألفاظ السياسية ، ناهيك عن ذكره لعدد من الأسماء السياسية الشهيرة مثل :(جمال عبد الناصر -.انور السادات. -كمال حسن علي.) ..

وكثيرا ما يغرق سياقه السردي بخطاب سياسي كثيف . يقول في احدى فقرات رواية وردة : ...تأميمات ناصر تثير الحيرة والتساؤلات ..شهاب يقول انها نتيجة منطقية لرغبة ناصر في توظيف الممتلكات الاجنبية في خطة تنمية شاملة للبلاد .....ومنها عبارته : الماركسية هي فلسفة القرن العشرين ...ومنها عبارة : مفاعل ذري عربي في مصر ....."(22)

عالج صنع الله ابراهيم موضوع السلطة في روايته **"اللجنة"** "المنشورة عام 1981 مادة دسمة للنقاش بالرغم من صغر حجمها نسبياً ، وتعد من أشهر روايات الكاتب صنع الله ابراهيم ، والتي يعرض فيها نقداً ساخراً متمردا لدول المنطقة العربية وما تنتهجه من سياسة انفتاح على السلع الأجنبية ، متخذاً من "الكوكاكولا" رمزاً للدلالة على طريقة معاملة الدول لمواطنيها. ومع أنها كانت قد كتبت منذ أكثر من ثلاثين عاما إلا أن ديناميكية

أسلوب السرد وسلاسة تتابع الأحداث والتفاصيل العديدة والرمزية والجدل الذي يتولد داخلنا و نحن نقرأ تلك الرواية نجدها أخاّذة ومفعمة بالروح الفلسفية والحس العصري الملازم للراهن لكن بنبرات فيها شوفينية من نوع خاص شبيه بالروح المتمردة في مسلكها الاسلوبي وفي نظامها الدلالي (23)، يشدك عنوانها ومسارها الدلالي منذ اللحظة الأولى، يحتويك خطابها ويثير فضولك ، ويبعث فيك حاجة للقول والتعليق، يضعك في الحدث، فلا تدرك المكان او الزمان، أو هكذا يتهيأ لنا ونحن نقرأ ونتلمس الخطوط العريضة للخطاب الروائي الذي يتأسس ديناميكيا على أسلوب المناورة وعلى نوع من الضرب تحت الحزام ..بحيث يوهمنا ولا يعطينا المعنى كما نريده ، يصنع المفاجأة ، ويخلخل توقعاتنا ، ويضعنا وجها لوجه أمام راو غير معني بما يحدث ..نلتمس للروائي أعذاره ونتمادى معه في تمرده على منطق الاحداث وعلى منطق اللغة وعلى منطق السياسة ..وهو يخيرنا بين الواقع الحقيقي والواقع المتخيل ، يصدمنا بذكاء الروائي المقتدر بأن يضعنا امام سرد محبوك مختزلا في ذلك كما من الوقائع التي تتوالى علينا في شكل مواقف ، نشعر معه عند مواجهتنا لها بقشعريرة واسعة ، وتشدّنا الرموز المثيرة للجدل وونشعر بعنف النقاش. الاستفزازي الذي يدخلنا فيه خطابه الروائي ، نحاول عبثا - التعبير عن ذلك بجملة من ردود الافعال المنطقية المناسبة للمصطلحات السياسية التي يديرها في فضائه الروائي ، مستغلا - بوقاحة أحيانا - وبنوع من العنف المقصود سياقيا احيانا اخرى ، يتلذذ حين يدمر احساسنا بالأمان ، يعرّي تآكلنا الداخلي ، ويكشف زيف عواطفنا المخبأة في تلويناتنا السياسية المهترئة ..يحول المدلول الروائي من العادي الى المدلول الاصطلاحي السياسي ، مثل (الجلسة.، أعضاء ،.العسكريين ،المحكمة ،السجن، لافتات ...) وفي سياق ذلك يسوق لنا جملة من الشخصيات السياسية النافذة في سوق السياسة ، مثل (أنور السادات. ، جمال عبدالناصر ....) متعمدا تارة ومضطرا تارة اخرى .

يخاطبنا في مقطع سردي من رواية اللجنة عل المباشر يقول بلسان الراوي العليم في لغة سياسية تهكمية :" هناك مبحث هام في علم الجمال عن العلاقة بين الوطنية المتطرفة وخلع الاشجار ، يتصل به بحث آخر في الاقتصاد عن دور البيع والشراء في حياة الامم والافراد ، وثالث في علم الاخلاق حول اندثار الامانة والصدق والشرف ، ورابع في السيكولوجيا عن عوامل القلق التي تدفع العباقرة والرواد الى التنقل بين

ميادين النشاط ، وهي دراسة قد تؤدي الى اكتشافات هامة بالنسبة لطفولة (الدكتور)وظروف رضاعته " (24)

يلاعبنا لغويا ، ويبدي لنا نيته في الضحك علينا كقراء ، فهو هنا فيلسوف المجتمع العام ، يفرض علينا مقولات خادعة بلسان الراوي العليم، يكسر فينا الرغبة في مقاربة حياتنا بالمنطق العملي ..من خلال اعتماده فلسفة بيزنطية يؤكد لنا فيها أن المجتمع العربي عموما ضائع تائه في أرجل تتفلسف على عنقه بطريقة ارتجالية ونحن نصدق ..هذه الامة تعلن افلاسها كليا لأنها تؤمن او لاتزال تؤمن بدور (اللجنة) التي تتكفل في المجتمع العربي حتى لا نقول معه الجامعة العربية بدور المعالج لراهن الحياة الانسانية الاجتماعية وحتى المعرفية ..وهذه مفارقة من مفارقات صنع الله ابراهيم في توظيف كفاءته العلمية والثقافية .

اخذ صع الله إبراهيم على عاتقه فكرة التشهير بهذه الاصطلاحات والشخصيات في أسلوب غاية في التمرد ، و وبلغة الهاوي - مثلا - يحول منتوج الكوكا كولا من لفظة عادية اختارتها شركة تجارية معينة لمشروب غازي معين إلى لفظة سياسية بمعنى مفارق تماما . و بتمرد اسلوبي دلالي واضح على اللغة الاعتيادية استطاع أن يخرجها من دلالتها العادية الى دلالة سياسية .

يقول صنع الله ابراهيم مثلا : "و خاضت الكوكا كولا غمار حربين عالميتين ، خرجت منهما منتصرة .فقد باعت خمسة مليارات من الزجاجات خلال السنوات السبع للحرب الثانية . ثم انها دخلت أوروبا على جناح مشروع مارشال الذي ساعد الأوروبيين بالمنتجات و القروض الأمريكية لتغطية ما سببته الحرب العالمية من عجز في الدولارات"(25) . ويضيف قائلا في النسق نفسه : واذ استقرت فوق قمة المجتمع الاستهلاكي ، الى جوار سيارة فورد وقلم باركر وولاعة رونسون ، لم تفتها التغيرات المتلاحقة في عالم اليوم، فعندما بدأ عصر الشراء العظيم والبيع بالتقسيط والتنافس على أكبر سيارة وأحدث طراز منها بأكبر مساحة في الخلف تستوعب أكبر كمية من السلع لتملأ أكبر ثلاجة ، تقدمت الكوكاكولا بالزجاجة العائلية (الماكسي) ."(26)

كل هذه المعطيات تصب في خانة التهكم السياسي من الأسر العائلية الحاكمة في الوطن العربي والتي تخول لنفسها ان تحول الحلم الى راهن مفروض ويقين مشروع من أجل تبديد المال العام في الرفاهية والبذخ بدءا بالسيارة الفارهة وامتدادا

الى الكوكاكولا ..التي تمثل أعلى مراتب البذخ في المجتمع العربي الاستهلاكي الفقير اجتماعيا الثري كأسرة حاكمة .

الأمر نفسه بالنسبة لمصطلح "هرم " في رواية اللجنة ..بحيث استطاع ان يعطيه دلالة سياسية واضحة الايحاء والتمرد والخرق : "لا شك أن الغرض الواضح من بناء الأهرامات هو أن تكون بمثابة مقابر خالدة . وان كان خوفو قد نجد في تخليد اسمه أكثر من أي ملك اخر في التاريخ ، فإن الغرض الأساسي من بناء الهرم هو المحافظة على جثته، لم يتحقق لأنها اختفت رغم الشبكة الداخلية المتقنة من الممرات و الغرف التي اخفيت عمدا أثناء البناء." (27)ان صنع الله هاهنا يقدم لنا ايحاءات التاريخ الذي يستثمره ويغربله ويقاوم بواسطته وفق زاوية نظره الفلسفية والايديولوجية ونحن لا نجرؤ ان نقول له انت مخطئ لأنه خبير بما يقول ، يعبث بإرادتنا الثقافية ونسلم معه طوعا لندخل باسم ذلك جدل التاريخ وما فيه من شبهات ..انه يخزن سحر التاريخ ومنه يصنع تاريخنا السياسي الذي يطعّمه بروح الابداع ونعلن معه ان الوثن الذي يسمى الاهرامات في عرف البعض نراه نحن تاريخا فسيفسائيا يعبر عن قلق الوجود وقدرة الانسان الرهيبة في تذليل المحنة التي يصنعها الجبابرة عبر التاريخ بدءا بفرعون وهامان ..

2 _المعجم التاريخي :

تتسم أعمال صنع الله إبراهيم كلها تقريبا بأحداث تاريخية و ألفاظ تاريخية ..لأنه تقريبا في كل رواية يقدمها للقارئ كان يعطينا جانبا من الحقيقة بأسلوب توثيقي متمرد مناهض للواقع المعيش ، مفارق للأنساق التاريخية المعهودة ، لذلك جاء معجمه التاريخي متنوعا يجمع مخزونا هائلا من الالفاظ التاريخية ناهيك عما يعرضه من الاماكن التاريخية الموثقة ، و كذا التواريخ الخالدة ذات الخصوصية المعينة ، و حتى الشخصيات التاريخية التي يضفي عليها ملامح تبدو كأنها تحف عجائبية . وكثيرا ما يستعين الروائي صنع الله ابراهيم "بالوثيقة أو الوقائع التاريخية ليعيد خلق بناء فني خيالي تتحول فيه الوثيقة أو الواقعة إلى جزء لا يتجزأ من هذا الخيال ، ضمن ما يسمى بالرواية الوثائقية ، لاستعانته " بتوظيف الوثيقة أيا كانت ..خطاب / تسجيل صوتي /أحداث مؤرشفة ، و هكذا عن أشكال الوثائق بمفهومها الواسع (28)

هذا ما يسوقه لنا الخطاب الروائي عند صنع الله إبراهيم في كتابته لهذا النوع من الرواية. وهو ما تؤكده مختلف الدراسات التي حللت متونه الروائية ، والتي تؤكد

نقديا ان : " تجربة الروائي صنع الله إبراهيم من التجارب اللافتة في الرواية العربية منذ أوائل نصه الروائي المعنون :" تلك الرائحة " ، حيث ينتبه صنع الله ابراهيم إلى خلق توثيق لحالة من الحالات المدهشة تارة والمستفزة تارة اخرى . وربما ادخلنا بمناورة اسلوبية في الجو العام الذي كانت تعيشه مصر في تلك الحقبة التاريخية من سنوات الستينيات ، و وهو تصرف بلاغي اعتمده بطريقة لم تكن لتقلل من سرد ية صنع الله ابراهيم لتجربتة الذاتية بعد فترة خروجه من السجن .هذا الأمر الذي اتضح أكثر و صار شكلا ملازما لمعظم أعمال صنع الله إبراهيم بعد ذلك (29)

إن أساس الرواية ذات الشكل التاريخي عند صنع الله ابراهيم تكمن في الفضاء التاريخي مثلما يمكن تلمسه في رواية بيروت ، و رواية نجمة أغسطس ، و رواية شرف ، و رواية وردة ، و رواية الحمامة و القبعة ..وغيرها ، تمثل اعمالا ابداعية واقول ابداعية بدل روائية ، لما تتميز به من مناورات أسلوبية مردها الى الحس المتمرد الذي يغلب على وجدانه الجمالي والادبي .

ان تشكيل الوقائع التاريخية وفق قانون الرواية انطلاقا من رؤيته الذاتية بالاستناد إلى الوقائع التاريخية من خلال ما يسمى بالإيهام بالحقيقة ..يمثل في اعتقادي نوعا من أساليب التمرد الاسلوبي في البنيات الروائية عند صنع الله إبراهيم . ونذكر هنا بعض اللحظات التاريخية المسجلة في أعماله الإبداعية حين ينقل الينا مقولات للرئيس حسني مبارك : " وأخيرا أقول لهم ان كلا منكم يفاخر بأنه ولد في مصر ونما في مصر ولكن فخركم ان كل ما تنتجه بلادكم صنع في مصر وبسواعد عمال مصر ولن نمل الحديث عن مصر ورفعة مصر ..مصر الاستقرار ..مصر الامان ..مصر تقديس الحرمات ..مصر المجتمع المترابط ..مصر الصامدة رغم الطعنات في النور والظلام ....." ومنه قول الرئيس مبارك كذلك في مضع آخر من رواية ذات : حققنا مفخرة لشعبنا العظيم ..(30) انها المداهنة الساخرة والمراهنة من طرف صنع الله ابراهيم على فارس خاسر ، او هكذا يريد ان يبلغنا الخطاب الروائي عند صنع الله ابراهيم في رواية ذات . وهو بذلك ينتهك حرمة الساسة بدهاء وهذه رغبته كما يوحي بذلك خطابه الروائي المولع باللغة السياسية ..و هو يحاول فوق ذلك ان يقنعنا أنه على حق ..وربما اختلفنا معه لإدراكنا ان مصر بإبائها التاريخي ليست مجرد شخصية سياسية ، ولا يمكن لأخطاء شخصية دراماتيكية سياسية ان تكون مدعاة لانتهاك تاريخ مصر بكل كبريائه ، ولعل المبرر الذي نقف عليه هنا ، هو رغبة صنع الله ابراهيم

في التمرد على القيم التاريخية المتصلة بمصر السياسية لا التاريخية ، وهو تمثّل مشبوه ، فيه جنون وطيش ودعوة لبلبلة طائشة متمردة لا مبرر لها واقعيا .

يسترسل صنع الله إبراهيم في تسجيل التاريخ واعادة توضيبه في الرواية نفسها بهذه اللهجة الخطابية المباشرة الصارخة في تقديمها للمعنى دون مواربة، وكأننا أمام سياسي او اعلامي سياسي : " ممثل و كالة التنمية الدولية الأمريكية أمام الكونجرس الأمريكي .....منذ 1985 دخلت الولايات المتحدة مع الحكومة المصرية في حوار منتظم حول السياسات و يتم التشاور مع كبار المسؤولين المصريين مرة كل شهر على الأقل و يستكمل ذلك مع الوزارات المتخصصة" (31)

كأني بصنع الله ابراهيم لا يقدم لنا بصفتنا قراء معجما تاريخيا فقط ، بل يقدم تاريخا بعينه، مثلما يقدم لنا بلغة أرشيفية ما يمكن للممحاة السياسية ان تمحوه بجرة قلم ..والدليل على ذلك انه وجد نفسه كما تنقل لنا ذلك سيرته الذاتية داخل دواليب السجن ببساطة ، لا لشيء الا لمغالاته في الخطاب السياسي ، وهو مالم يتقبله الرجل الذي يأبى الا ان يقدم نفسه في حكم المظلوم المقهور، وهو ما يعني أسلوبيا ان انحياز صنع الله ابراهيم الى هذا النمط من المعجم التاريخي، والذي يتحقق لديه من خلال التاريخ الذي يسجله ثم يجعله جزءا من واقع الرواية بأسلوب متمرد الى أقصى حد، يجعلنا نميل الى مشروعية مصادرة السلطات المصرية لنزعته المتمردة التي تميل الى كسر الطابوهات السياسية - بمبرر مقنع وبمبرر غير مقنع - مهما كان نوعها ، واعتبار كل من لا يؤمن بمبادئ صنع الله ابراهيم مجرما أو خارج القانون أو على الأقل سلطة ظالمة، وهي مازوشية خاصة تسكن هذا الروائي الذي يرى العدالة تنتهي عنده، وهذا خطأ صارخ في قراءة الواقع الاجتماعي التاريخي السياسي لمصر، لسبب بسيط هو ان ما أراه انا خطأ قد يراه غيري صوابا ..وهنا تكمن أدلة التمرد الاسلوبي لدى صنع الله ابراهيم .. وهي نمط من المجازفة غير المضمونة العواقب ، والتي تصل أحيانا الى درجة العمى السياسي البعيد عن لغة المخيلة الابداعية ..وهو ما يمكن ان يدرج تحت ما يسمى " راية التمرد الما بعد حداثية " بمفهوم سادي بلانت .(32).

من وجهة نظر أخرى ، وانطلاقا من رواية : " وردة " يطرح صنع الله ابراهيم للقارئ معجما تاريخيا من نوع آخر ومن سلالة ثقافية اجتماعية سياسية ذات حساسية مفرطة ، يُقولب فيها الاحداث في لعبة سردية يمعن فيها الاسقاط وتبني الافكار

الآهلة بالغضب المصطنع احيانا والفعلي احيانا اخرى ، يكثر من اللوعة والسخط وكشف عورة الساسة ، يؤرخ وهو يكتب معبرا عن مراحل محددة ربما عايشها وربما تمثلها بوعي وبغير وعي ، مستعينا بتواريخ مرتبطة بأحداث سردية ، ملخصا تارة ومسهبا تارة اخرى لجملة من الأحداث منها ما هو واقعي و منها ما هو من نسج خياله ، الى درجة التململ في نقل الافكار التي تجعلنا نتململ ازاء حفرياته السياسية التي يعيد انتاجها روائيا في منظومة متلبسة باللامنطق السردي ، مما يجعل تمرده الفكري والأيديولوجي والاجتماعي مجرد تمرد نفسي ناتج عن تبنيه لنزعة انطوائية غير قادرة على مسايرة الحقيقة الاجتماعية في مصر بكل ما فيها من ثوابت ومن قيم واعتبارات وبما لها من هوية وثقافة ..ويمكن اعتبار هذا الفعل المتمرد نزعة عدائية نابعة مما كان يعيش على فتاته السياسي بعض العلمانيين الطائشين في مصر وفي بعض بلدان الشام الكبير ، في مرحلة ما بعد جمال عبدالناصر وخاصة دعاة القومية المتأخرة ..(33).وهم قائمة ممن ضاقت عليهم رؤية العالم على نحو منطقي متجانس مع معطيات الواقع ببؤسه وثرائه .

ان فلسفة الابداع عند صنع الله ابراهيم بهذا الشكل تبدو مفعمة سلبا بقلق وجودي ، شبيهة تاريخيا بقلق بشار بن برد ..الى درجة العمى (34).مما يجعلنا نصف ثقافته وقراءته للمجتمع المصري بالقاصرة او الضبابية وربما المتسرِّعة ، غير المكترثة للقدرات الفذة التي جعلت من مصر أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف ادريس ..أساطين يعتد بها التاريخ العالمي الثقافي والانساني والفكري والابداعي .

ما أكبر تشتت العالم العربي الذي وصل الى مستوى من الشبهات التي أوصلته الى درجة لا يثق بنفسه وبمجتمعه وما أبلغ وخزات صنع الله ابراهيم السياسية المسيّسة الى درجة التمرد .

الهوامش :

1- رواية وردة : صنع الله ابراهيم – دار المستقبل العربي - القاهرة - ط 3 – 2015 -

2- يراجع في هذا المقام أدب التمرد – ارهاصات الثورة في أعمال أدباء مصر – سوزان شاندا – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – ط1 - 2014 – القاهرة - ص : 40 ص : 41.

3- رواية وردة : صنع الله ابراهيم ص 86

4- يراجع أدب التمرد – ارهاصات الثورة في أعمال أدباء مصر – سوزان شاندا – ص :66

5- رواية وردة : ص : : ص 88

6- الرواية المنسية لصنع الله ابراهيم – افتتاحية محمد شعير للعدد الخاص من مجلة عالم الكتاب – الاصدار الثالث 2015- يوليو – اغسطس – العدد 90 – 91 – القاهرة

7- مقدمة الطبعة الرابعة لرواية (تلك الرائحة لصنع الله ابراهيم – ص 3 – دار الهدى للنشر والتوزيع – 2009 القاهرة

8- أدب السجون - مهداة الى الكاتب الكبير صنع الله ابراهيم - تحرير شعبان يوسف – الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 2014 ص 248

9- مقدمة يوسف ادريس لرواية تلك الرائحة في طبعتها الاولى : تراجع ط4 ص : 25 – 29

10- أدب السجون : ص 13

11- الرواية المنسية 67 لصنع الله ابراهيم هي الرواية التي بادرت مجلة عالم الكتاب الى نشرها وكان ذلك موقف مشرفا من هذه هيئتها وعلى رأسهم الاعلامي محمد شعير حيث خصصت لها العدد 90- 91 – 2015

12- المرجع نفسه . تراجع افتتاحية العدد ..

13- ادب التمرد (مرجع سابق) ص : 68

14 - رواية ذات :صنع الله ابراهيم . ص 22 –دار الثقافة الجديدة – القاهرة – ط 5 – 2011

15 – المقاومة في الكتابة – قراءة في الرواية المعاصرة – جابر عصفور .ص324 – 325 الدار المصرية اللبنانية ط1 – 2016 القاهرة

16 – سرديات القرن العشرين :د . صلاح فضل . ص :48 - الدار المصرية اللبنانية ط 1 – 2015 – القاهرة

17 – المرجع نفسه : ص : 44

18 – يراجع أدب التمرد : مرجع سابق ص : 72

19 – انظر المرجع نفسه : ص : 72

20 - أدب السجون ،ص248 (مرجع سابق)

21 - المرجع نفسه ص 248

22 – رواية : وردة : ص : 86

23 - أزعم في هذا الشأن ان صنع الله ابراهيم في روايته اللجنة يحتاج الى قراءة باثوجرافية مختصة لاكتشاف البؤر النفسية العميقة في سيرة حياته

24- رواية اللجنة : ص : 77

25 - رواية : اللجنة ، صنع الله إبراهيم ،دار الثقافة الجديدة .ط.10 2012. ص.25

26- المصدر نفسه ص 25

27 - رواية اللجنة : صنع الله ابراهيم . ص 30 – دار الثقافة الجديدة – ط 10 – 2012 القاهرة

28 - يراجع الأسلوب الوثائقي في السرد الروائي ،محمد عبد الرحيم ،مجلة القدس العربي ، 29 أوت 2015..بدون صفحة

29- يراجع : المرجع نفسه بدون صفحة

30- رواية : ذات ، صنع الله إبراهيم ،دار الثقافة الجديدة . ط5 – 2011 – القاهرة ص 39 - و : ص 295

31 – المصدر نفسه - ص295 (مصدر سابق)

32 – هذا ما تضمنه المعنى العميق لكتاب : راية التمرد - الاممية المواقفية في العصر ما بعد الحداثي – سادي بلانت – ترجمة : احمد حسان – المجلس الاعلى للثقافة -1999 -

33 – لانريد ان نسمي هنا ولكننا نشير الى بعض دعاة الفكر الغوغائي الذين يتبنون افكارا بحجة المعارضة دون تقديم البدائل الموضوعية فاذا أوقفوا عند حدهم أعلنوا التمرد ..

34 – استنبطت هذه الفكرة من كتاب القلق والتمرد في شعر بشار بن برد لفاطمة الزهراء المواقي ونصر عباس –مكتبة الآداب – القاهرة - 2011